رؤى

مدارس «القطان» الصيفية

معتصم الأطرش

«فليمس وطني حراً . . . فليرحل محتلي فليرحل . . . فليمس وطني حراً فليَرحل محتلي . . . » . ترنيمة رددتها الحناجر والقلوبَ وعبق ملأ المكان، بصوت واحد وقلب واحد وقف المشاركون وهتفوا آخر نشيدهم مودعين المكان، «فليمسي وطني حراً» . حلم يراودنا يحملنا ونحمله إلى كل مكان، وطن يستحق منا كل الجهد والعمل حين ندرك أن الحلم يصبح حقيقة بالعلم والعمل، وحين نحرر أنفسنا وأبناءنا وأرواحنا وأفكارنا وإنسانيتنا أولاً، ويبقى الوطن فينا حراً. بهذا النبض وصدى الصوت يهتف في أعماقي، حزمت أمتعتي في غرفة الفندق مودعاً زوايا المكان وأنا أستذكر تجربتي فيه خلال المشاركات الثلاث لأدرك نجاح التجربة وأهميتها، فأحببت أن أكتب عنها وأنقلها علّني أتمكن من توصيل الفكرة عن أهمية المشاركة في هذه المدرسة بالنسبة للمعلم، وعرفاناً مني لكل من ساهم في تأسيس هذه المدرسة وبناء الفكرة وتطويرها تخطيطاً وتنفيذاً ومتابعة .

مدرسة القطان الصيفية عالم رائع ومنفرد من العلم والفكر والعمل والتطور، معسكر تدريبي لبناء الذات، تجربة فريدة أتمنى أن يشارك فيها كل معلم، إنها مصنع القيادة، أهم أركانها روح الجماعة، لا مكان فيها للأنا، إنها تجربة حياة عشتها بحلوها ومرها لأحقق أعظم انتصار على الأنا، وأتمكن من الانتقال إلى مرحلة جديدة من الفهم والتطور عندما أدركت أن التغيير يبدأ من الذات، في حياتي المهنية كمعلم كان وجهي ملتصقاً في الصورة، وكنت أجري مسرعاً خلف المنهاج والأهداف وأنا أحمل مشاكل عدة، اشتكي الصفوف المكتظة، والرواتب المتواضعة، والتعليمات المقيدة و . . و . . و . . عملت بجهد محاولاً تغيير الواقع، لكن بعد مشاركتي في المدرسة الصيفية حلقت بي الفكرة عالياً، لأنظر من بعيد لنفسي وطلابي ودوري كمعلم، ثم لأكتشف إني كنت أجري وأجر من خلفي أطفالاً لأعلمهم القراءة والكتابة. لن أركض بعد اليوم، بل يجب علي أن أقف وألتفت إلى أطفالي، أن آخذ بيدهم، أن أنظر في عيونهم، أن أساعدهم في تطوير أفكارهم وبناء أنفسهم والتعلم عن إنسانيتهم وإعدادهم لمواجهة الحياة، دون أن أغفل تعليمهم القراءة والكتابة، فثمة ما هو أهم في الحياة من أن يعرب الطالب جملة .

أنا مدرك أنها مسؤولية كبيرة وتحدٍّ صعب، إلا أنني أعرف أيضاً أنها مهمة المعلم، وإلا كيف يكون معلماً، ومن قال إن بناء الإنسان عمل سهل، (إن كنت لا تدري فتلك مصيبة أو كنت تدري فالمصيبة أعظم) . إن تقاعسي كمعلم عن أداء الدور في بناء الإنسان والتخطيط لمستقبله، والتفكير الأناني بنفسي وأولادي فقط، سيكون كمن يخرق خرقاً في سفينة تحمل الجميع، وسيدرك أنه مخطئ حين يحس ببرودة الماء تغمر قدميه، وأن السفينة إذا غرقت ستغرقنا جميعاً .

فالمدرسة الصيفية بتكوينها وروحها لا تعلم أسلوب تدريس جديداً أو تطور فكرةً وحسب، إنها تُعد معلماً ليكون واعياً لذاته وأهدافه، ومستعداً لحمل الفكرة وإحداث التغيير، منطلقاً من تطوير ذاته . إن الكنز الثمين ينقل عبر وسيلة آمنة وقوية، والمعرفة أعظم كنز إذا ما أردنا حملها ونقلها، علينا أن نبني أنفسنا، ونشحذ قوانا، ونكون مستعدين، وهذا ما توفره المدرسة الصيفية، فقد وضعتني ونفسي على المحك لأعمل وأتعلم وأخطط، فإما سأحمل كنزي وأمضي، وأما سأستسلم وأسقط في الطريق. لقد أدركت أن الفكرة عظيمة إذا ما أدركنا مدى قوتها وتأثيرها، سيصبح كل شيء لأجلها هيناً، وسنخجل أن نتحدث عن شيء غير إصرارنا على نجاح التجربة ونقلها وتطويرها، وهو دليل على نجاحنا وتطورنا، ولن نفكر كثيراً في مكان النوم أو نوع الطعام أو بعد الطريق. إنك حين تشارك في مدرسة القطان الصيفية، إنما تشارك في مساقات كثيرة، وتخضع لاختبارات متنوعة، مساقات ملحقة واختبارات ليست سهلة، وهذه المساقات لا تقل أهمية عن المساق الرئيس، وربما كان النجاح فيها يفوق النجاح في المساق الرئيس، ذلك لأنها ليست نزهة، وفي الوقت نفسه ليست مهمة صعبة حين ندرك ونكون مستعدين لأن نفكر كيف نعطي أكثر من تفكيرنا ماذا سنأخذ . . حين نفكر بغيرنا .

استعداد للسفر، عرق على الجسور، ومشقة وتغيير يطرأ على كل شيء في حياتنا، الإقامة، والأكل، والنوم، والعلاقات كلها، مساقات واختبارات نبني فيها أنفسنا ونتعلم الكثير، وتهون الصعاب حين تدور عجلة المشاركة في العمل والحياة، حين ترى أناساً يفكرون بغيرهم، أحدهم يجر حقيبة الآخر، وآخر ينتظر زميلاً له ساعات على الجسور، يتشاركون زجاجة الماء ورغيف الخبز وتفاحة، إذا

مرض أحدهم هناك، وجد الجميع حوله، منهم من يحمل له الطعام، ومنهم من يسقيه الدواء، يتشاركون الحلو والمر، والمعرفة والتجربة، يساعدون العمال بعد الوجبة في نقل صحون الطعام وبابتسامة أو كلمة شكر، يحملون معهم بعضاً من همهم، هذه روح المدرسة الصيفية التي كانت، ويجب أن تكون، هذه الروح التي عشقتها حين أحسست قوتها وجمالها وقيمتها وأهميتها لحملنا على النجاح كمجموعة وتحقيق أهدافنا.

ولا بد أن أتحدث عن الدراما التي هي مساقنا الأول، الدراما التي حملتني وطلابي إلى عالم جميل، وفتحت لنا أبواباً للاستكشاف والتعلم، وجعلت مني معلماً جديداً، ولا أبالغ إذا قلت إنها لم تؤثر علي كمعلم فحسب، بل أثرت في حياتي كلها، وفي طريقة تفكيري ورؤيتي للأمور، لقد أخرجتني من قوقعة المعلم التقليدي، وحررتني من قيود أثقلت فكري، كالتفكير في المنهاج، والحصة، والوقت، والكتاب المقرر، وطلبات الإدارة، ودفاتر التحضير، ورصد العلامات، وأزالت غشاوة غطت عيوني حتى كدت لا أرى طلابي، لقد حررت فكري قدر المستطاع، وأحمل اليوم منظاراً كبيراً لأرى ليس طلابي فحسب، وإنما أرى تفاصيل حياتهم، أشاركهم همومهم وبناء ذواتهم، أقلب معهم الأدوار وموازين القوى لأكون مرة ابنهم ومرة زميلهم . . والدهم أو أخوهم، وفي كل مرة أشاركهم استكشاف العالم من حولهم وعلاقاتهم بكل شيء وحياتهم، دون فرض للرأي أو تحيز لفكرة، عندها تحررت أفكارهم ومنحوني الكثير، مع أنني لم أهمل المنهاج أو الحصة، فما زالوا يتعلمون القراءة والكتابة والحساب، لأجل ذلك أحبني طلابي حباً حقيقياً، ورأيت كل أطفال العالم من خلالهم، وعملت بجهد لأنها مسؤولية كبيرة أن تدرك حاجة طفل إليك، وأن تعوض طفلاً محروماً شيئاً ما، مع علمي أنني لن أسعد الكثير من أطفال العالم المحرومين، ولكن كلّي ثقة بأنني أستطيع أن أسعد طلابي، وأرسم الابتسامة الحقيقية على وجوههم، لن يدرك أحد أثر عملي مع طلابي على حياتهم وعلاقتي بهم، ولن يعرف مدى نجاح تجربتي التي انطلقت من المدرسة الصيفية، إلا إذا جاء إلى الصف ليرى الطلاب متسمرين في أماكنهم، رافضين العودة إلى البيت بعد يوم طويل وهم يطلبون الاستمرار في العمل، ليرى عيونهم كيف ترقب لقائي وتضحك، وهم يرددون بشوق متلهفين أولى كلمات الصباح: صا . . . با . . . ح . . . ال . . . خير.

هناك في الصف جاءتني طفلة يتيمة وهم يغادرون وسلمت علي قائلة: شكراً إلك يا أستاذ معتصم لأنك بتعلمنا منيح. وقدمت لي هدية كانت وردة بلاستيكية حمراء ومعها رسالة في ظرف من صنعها تقول فيها، نحن نحب الأستاذ معتصم أحسن أستاذ . . . لقد كانت رسالة عظيمة أهم ما فيها أنها صادقة، بعيدة عن أي نفاق، لقد أحبتني حقاً وهو حب نادر في هذه الأيام، أحبتني ولا أدري إن كنت أستحق حبها الصادق البريء، هي وأقرانها، لكن ما أعرفه أنها وكل من حولها يستحقون حبي وتعبي وسعيي من أجلهم ومن أجل تعلمهم، وكانت هديتها أغلى وأجمل هدية أتلقاها في حياتي، وكان أجمل حب، وأعظم إطراء، وأكبر من إطراء أي مسؤول.

معتصم الأطرش
مدرسة جلجليا الأساسية – رام الله

من إحدى الفعاليات في روضة مدرسة الفرندز.